النرجسية وتجلياتها في غزل ابن زيدون

الدكتورة حسناء أقدح*

الملخص

ثمة علاقة وثيقة بين الأدب والنفس الإنسانية؛ فحياة الإنسان مركبة من الشعور واللاشعور، يفصل بينهما الكبت أو منطقة (الهو). والكلمات الصادرة عنه تعد مفاتيح أساسية لشخصيته، أو نوافذ يطل منها المحلل النفسي أو الناقد إلى النَّفس لسبر أغوارها المعتمة .

والشعراء خير من سهل السبيل لعلماء النفس والدارسين اكتشاف ما يعتمل في الذات البشرية من مشاعر وأحاسيس وأفكار.

ولمَّا كان الخطاب الشعري عند المبدع يصدر عن الشعور، ويعكس- في الوقت نفسه- أثر اللاشعور في وجدانه، فقد رغبنا في استقراء غزل ابن زيدون بولادة؛ لنتلمس فيه أثر مكنوناته النفسية، فيزداد القارئ فهماً لحقيقة قصتهما العاطفية، ويتذوق جماليات غزله بها .

ولا نريد من هذه الدراسة أن نخوض في غمار النظريات الفلسفية، وأن نحمّل النصوص ما لا تحتمل، فما يشغلنا في دراستنا الأدبية لابن زيدون هو نرجسيته القابعة في لا شعوره العميق، ورصد تجلياتها من خلال علاقته العاطفية بولادة؛ لنصل إلى رؤية جديدة لإبداعاته الغزلية، مبتعدين في ذلك عن مفهوم النرجسية في مدلولها الفرويدي .

* قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة دمشق

مفهوم النرجسية:

وصل مفهوم النرجسية إلينا عبر أسطورة "نرسيس" الشاب اليوناني الجميل الذي عشق نفسه عشقاً كبيراً، فالنرجسية تعني حب الذات حباً مرضياً، يفضي بصاحبه إلى الوقوع في أخطاء كثيرة نتيجة الصراع النفسي بين ما يريده النرجسي، و ما يفرضه المحيط الخارجي من قواعد وقوانين تتنافى مع أناه، وكلما ازداد النرجسي عشقا لذاته ازدادت أخطاؤه.وإذا عدنا إلى بدايات تكون النرجسية عند الإنسان وجدناها تبدأ بحب الأم لوليدها حبا مفرطاً يجعل الطفل محباً لنفسه كما أحبته أمه، وهذه المرحلة النرجسية لا غنى عنها لكل إنسان خلال مرحلة النمو الأولى، ولكن بعض الأشخاص يستقرون فيها مدة طويلة، وهنا تصبح النرجسية حالة مرضية، إذ يأتي بعد مرحلة الحب الأمومي أثر التربية الأسرية التي تفاقم الممنوعات، ما يؤدي إلى تشجيع بروز النزاعات النفسية المرتبطة بالأنا العليا لدى الطفل الذي أصبح راشداً، وعند ذلك يشعر هذا الراشد بالصدود الاجتماعية – كما يسميها فرويد- فيراها جروحاً نرجسية لحب الذات، تجعل المرء يصاب بنكوص طفولي، فيعجز عن مواجهة العالم الخارجي، ويتشبث بطفولته، ويهيم بذاته ليعوض إخفاقه في تحقيق التوازن بين أناه والمحيط الذي يعيش فيه، وتصبح ذاته محور الوجود، يُغلّب ما يحبُّ على ما يجب، قاعدته في ذلك امتلاك كل شيء حوله، فيكرر أناه على نحو طفولي غير مسوَّغ و لا عقلاني أمام المجتمع، ويبعدها عن كل ما يجعلها صغيرة، فتغدو بمعزل عن كل إحباط يمكن أن يصيبها، وتصبح القاعدة السائدة في مجال النرجسية هي قاعدة الكل أو اللاشيء، وفقدان هذا التوازن النرجسي ينشئ العدوان، فمن يعاني جرحا نرجسياً نتيجة الإحباط يشعر بحاجة ماسة إلى الثأر لمحو الخطأ، وإزالة الجرح بأية وسيلة ممكنة وباندفاع راسخ وعميق[1] .

1 - انظر مفهوم النرجسية في: النرجسية في شعر نزار قباني، سعد بوفلاقة، ط1، 1994 م، ص 10 المعجم الأدبي، جبور عبد النور، ط2، 1984، دار العلم للملايين، بيروت، ص279

صور النرجسية:

تبدو النرجسية في صورتين:

1 – الانطواء على الذات: إذ يتطلع وريث النرجسية إلى منح ذاته حداً أقصى من الامتداد، ويعدُّ الموضوع الخارجي مكروهاً ومنبوذاً، فينطوي على ذاته المعبودة .

2 – البحث عن الذات في الآخرين: يطمح النرجسي في حب شخص يشبهه، وهنا نرى نفس النرجسي تتطلع إلى الاختلاط بشخصيات ذات سلطة ومكانة عالية، طموحاً منها في السيطرة والتألق .

أمَّا حين يفوز النرجسي بموضوع الحب فإنه يتخذ - بادئ الأمر- نفسه موضوع الحب قبل أن ينتقل إلى اختيار موضوع حب شخص آخر غير نفسه .

العوامل التي جعلت من ابن زيدون نرجسياً:

أولاً- نشأته وطموحاته:

نشأ ابن زيدون في أسرة مرموقة عرفت بالعلم والصلاح والجلالة، وما إن بلغ الحادية عشرة من عمره حتى فقد والده، فكفله جده الذي كان من المشايخ المعروفين بالصرامة والتزمت، وقد مهد له هذا الجو الذي درج فيه، ناهيك عن استعداده الفطري، عوامل العظمة والنبوغ، وكان ابن زيدون وحيد والده أو بالأحرى وحيد أمه، فانعكس هذا الأمر انعكاساً خاصاً في نفس الشاعر، إذ خضع للدلال الأنثوي ... وهذه العلاقة الخاصة مع أمه هي البذرة الأولى للنرجسية التي انغمست في قلبه فطبعت في نفسه، الأَثرة والعُجب، ولاسيما إذا عرفنا اشتهاره بالوسامة.

ولعل انحدار ابن زيدون من سلالة الفقهاء، ونشأته في أحضان جده، كانا كفيلين بجعله مترفاً ووقورا، بيد أن طبيعته المرحة ونفسه الحساسة، وطفولته الأنثوية

أضواء الطب النفسي على الشخصية والسلوك، د.وليم .ك.متجر منروليف، تر. محمد أحمد غالي، مكتبة القاهرة، ص 73 .الذات والغرائز، فرويد، تر . محمد عثمان نجاتي، ص 26

المترفة، فضلاً عن طبيعة عصره المتحلل، مالت به إلى مباشرة اللهو ومعاقرة الراح، واستباحة المتعة بعد أن هزته فنون الموسيقا والغناء.

وهكذا كانت نشأته ذات أثر بالغ في حياته ،إذ نراه شاباً بعيد المطامح، واسع الأهواء، يعتز بثرائه وحَسَبِه ونسبه اعتزازاً كبيراً أشعره بتواضع مكانته عند آل جهور فقال:[1]

نَصِيبٌ من ولايتكمْ كثيرٌ وحَظٌّ من عِنايتكمْ قليلُ
إبائي في جواركمُ الذليلُ وحَدِّي في رَجَائكمُ الكَليلُ

هذه المطامح قادته إلى طلب ما يريد بإصرار طفولي، أحاله إلى الاعتقال، وهذا يجعلنا نشعر بنكوصه الطفولي الذي أشعره بأنه طفل رغباته مجابة، فابن زيدون يشعر بعظمة شأنه وحين لا يؤمن مجتمعه بقدراته، فإنه سيصطدم به ليرتد إلى طفولة لا واعية ظناً منه أن المجتمع سيلبي جميع رغباته كما كانت تفعل أمه .

إنها إذاً طفولة أنثوية مترفة، حاول الجد بصرامته إخضاعها للأنا العليا، فكانت حياته تراوح بين جده " مثال الأنا العليا " ووالدته " مثال الأنا " وإن بدا تأثير الأم أقوى ،إذ نرى ابن زيدون ينظر إلى نفسه بعيني أمه .

ثانياً - نظرته إلى المرأة:

لعل الحديث عن نظرته إلى المرأة يبدو ضرورة لا بدَّ منها من أجل الولوج إلى حقيقة شعوره نحو ولادة، إذ تبلور لنا هذه النظرة نظرته إلى ولادة ذاتها، وربما يفاجئنا تماماً حديثه عن المرأة ولاسيما إذا عرفنا حديث النقاد المتواضع والجازم عن الحب الكبير الذي يربط شاعرنا بولادة، الذي لو عددناه صادقاً، لكان أحرى به أن يحترم نساء العالم لأجلها، ولكننا نراه ينظر إلى المرأة نظرة مختلفة تماماً، ضارباً

1 - ديوان ابن زيدون، ص 332

بعرض الحائط كلام النقاد عن هذا الحب الكبير،فهو في معرض تعزيته للمعتضد في ابنته نرى نظرته إلى المرأة تنم على جاهلية دفينة في أعماقه[1]:

حَبَّذَا هَدْيُ عروسٍ دفْنُهَا كان الهِدَاءَ

وهو لا يتردد في تشبيهها بالحذاء يخلعه الرجل ويستبدل آخر به، يقول للمعتضد مهنئاً إياه بزواجه الثاني ومعزياً بوفاة الزوجة الأولى [2]:

هي والفقيدةُ كالأديمِ اخترتَهُ ففقدتَ إذ خَلَقَ الِّشرَاكُ شِرَاكَا

وكان لا يتورع عن استعمال يده في تأديب المرأة ،إذ يحتد النقاش بينه وبين ولادة في إحدى المرات فيمد يده إليها بالضرب في ثورة من ثورات غضبه باندفاع هائج، ثم يحاول بعد ذلك أن يعتذر ولكن لات حين اعتذار:[3]

إن تكنْ نالتكِ - بالضربِ يدي- وأَصابتكِ بما لمْ أُرِدِ
فلقد كنتُ - لعمري - فادياً لكِ بالمال وبعضِ الولدِ

وهل تفتدى الإهانة بالمال ؟ !..ولاسيما إذا علمنا بأنه لم يكن متزوجاً آنذاك، وعبارة الفداء بالولد هذه ليست إلا من قبيل الترضية .

هذه النظرة إلى المرأة كافية لمعرفة حقيقة منزلة الحب لديه، ويبدو أن الحب يرادف عنده المتعة الحسية في الأغلب الأعم . يقول في وصف الهوى [4]:

أخذتُ ثلثَ الهوى غَصْبَاً، ولي ثلثٌ وللمحبينَ- فيما بينهمْ- ثلثُ

1 - ديوان ابن زيدون، ص 561
2 - المصدر نفسه، ص 441
3 - المصدر نفسه، ص 175
4 - المصدر نفسه، ص 176

تـــاللهِ، لـــو حلـــف العـــشـــاقُ: أنهُـــمُ موتى من الوجد- يومَ البـــينِ-مـــاحنثوا
قومٌ - إذا هُجِرُوا مـــن بعـــد ماوُصِـــلُوا ماتوا، فإن عـــادَ مـــن يَهْوَوْنَـــهُ بُعِثـــوا
ترى المحبينَ صَـــرعى-فـــي عِرَاصِـــهِمُ- كفتيةِ الكهـــفِ، مـــا يـــدرونَ مـــالَبِثُوا

صور له غروره النرجسي أن الحب موقعة حربية، ظفر وحده فيها بالثلث، ولـــم يقنع به – كعادته – فاغتصـــب الثلث الثاني، وتفضل بعد هذا على جميع المـــــحبين بالثلث الأخـــير، وهو يتحدث عن العشاق، وما يفعله الهوى بهم من عل، وكأنـــه لـــم يذق طعم الهوى .

ثالثاً- طبيعة علاقته بولادة:

حياتها – بيئتها – أخلاقها:

تنتسب ولادة إلى بيت أموي عريق، فوالدها هو الخليفة المستكفي بـــالله، الـــذي أجمع المؤرخون على وصفه بالتخلف والضعة والانغماس في الملذات، وقد قيل فـــي وصفه:"ربعة أشقر أزرق أشم مدور الوجه واللحية، ضخم الوجـــه والجـــسم، كبيـــر البطن، صاحب أكل ومشرب وجماع وتخلف"[1]. وكان توليه أمر المسلمين في قرطبـــة طامة كبرى، إذ يصور أبو حيان ذلك في قوله:" أرسله الله تعالى على أهـــل قرطبـــة محنة وبلية، إذ كان منذ عرف غفلاً عطلاً، منقطعاً إلى البطالة، مجبولا على الجهالة، عاطلاً عن كل خصلة تدل على فضيلة، عضته الفتنة فـــأملق حتـــى اســـتجاز طلـــب الصدقة، رأيته أيام الخسف بأهل بيته في الدولة الحمودية، ولم يكن ممن لحقه الاعتقال لتحقير أمره "[2].

وقد تزوج من أَمَةٍ مسيحية حبشية، قيل بأنها أم ولادة، فكانت ولادة ثمرة هذا الزواج، وقد تسللت إليها بعض اللمحات من والديها، على الرغم من عظمة أجدادها، إذ أعدت

1 - بغية الملتمس، الضبي، ج 3، ص 140،141

2 - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ق1، ج1، ص380

في قصرها ندوة للعظماء والعلماء والشعراء، بعد أن نزعت حجابها، واختلطت بالرجال، وهذا أمر غير مألوف في البيئة الإسلامية، ساعدها في انطلاقها ما كانت تتمتع به من جمال، وحضور بديهة، وعذوبة حديث، وسعة اطلاع، فضلاً عن ظروف حياتها التي أبعدتها عن النموذج المثال للأب الفاضل، فأثر في نشأتها، إذ أخذت تراوح بين (الهو)[1] و(الأنا العليا) وما يدلُّ على هذا رواية ساقها لنا المؤرخون، الذين رووا أنها كتبت على عاتقها الأيمن [2]:

أنـــا والله أصـــلحُ للمعـــالي وأمـــشي مـــشيتي وأتيـــهُ تيهـــا

وعلى عاتقها الأيسر:

وأُمْكِـنُ عاشـقي مـن صـحن خـدي وأعطـي قبلتـي مـن يـشتهيها

إن هذا الكلام يبدو فاضحاً ومكشوفاً، ولا يمكن أن تتفوه به فتاة مهما كان مستواها الاجتماعي هابطاً فكيف بولادة؟! سليلة عظماء شهد لهم الزمان بالعظمة، ولو أننا تقبلنا هذه الرواية، مسلّمين بفساد والدها وتراخيه التام في تربية ابنته فإننا نرى ولادة ترتد في حقيقة الأمر على أرض الواقع إلى الإيمان، فهاهي الآن تعترف بلين كلامها وتساهلها في الحديث، بيد أنها في الحقيقة مسلمة يمنعها دينها عن ارتكاب الفواحش تقول ولادة [3]:

إنـي- وإن نظـر الأنـام لبهجتـي- كظبـاءِ مكـةَ صـيدُهن حـرامُ
يُحـسبنَ مـن لـينِ الكـلامِ فواحـشاً ويـصدّهنَّ عـن الخنـا الإسـلامُ

1 - الهو: النزعات ومستودع الغرائز التي توجه بعض فعالياتنا .

2 - نفح الطيب، المقري، ج5، ص205

3 - نفح الطيب، ج5، ص205

ويرجح الدكتور علي عبد العظيم أن ولادة مصابة بالسادية، ويرجع أسباب هذا المرض إلى الوراثة من ناحية والدها[1]. وأعتقد أن هذا الكلام فيه شيء من المجازفة في تقرير مثل هذا الأمر، ولا أدري على أي شيء استند الدكتور علي عبد العظيم في مثل هذا التقرير، فولادة التي نظر الأنام إلى حياتها نظرة ملأى بالشك، قد بَينتْ لهم بأنها مسلمة يصدها الإسلام عن أي فاحشة، وحياتها التي عاشتها من دون زواج ليست دليلاً على أنها أرادت قتلَ عشاقها شوقاً، بل كانت دليل صدمة تلقتها في حياتها مرتين:

1 - انهيار المثل الأعلى للأب ما جعلها تنظر إلى الرجال نظرة سوداوية حذرة.

2 - إخفاقها الذريع في توطيد علاقتها بابن زيدون الذي نظر إليها نظرة نرجسية جعلتها تقطع العلاقة السوية التي تربط الرجل بالمرأة .

ولعلنا إذا أردنا إنصاف ولادة، فإننا نشعر بنظرتها الفوقية المتعالية إلى من حولها، ومما قوى ذلك نظراتُ الانبهار التي انصبت عليها من كبراء الدولة، بيد أن ابن زيدون الذي تخيرته من بين الجميع، لم يتمكن من الاحتفاظ بها، لشعوره بالغرور، فكانت تلك الفوقية هي النقطة المشتركة بينهما التي جعلت الفراق بينهما مؤكداً، لأن كل واحد منهما أراد أن يبحث عن أمنه الذاتي ؛ فولادة التي افتقدت المثل الأعلى الأبوي، أرادت أن تحصل على أب في صورة زوج مثالي،وابن زيدون أراد الحصول على امرأة في صورة أم تحقِّق كل رغباته، وتحبه أكثر منه، وتفضله على ذاتها كما تفعل الأم حين تفضل ابنها على نفسها، وبهذا لم يتمكن كلاهما من الاستمرار، فابتعدت ولادة عنه وعن الزواج نهائياً، على الرغم من فرص الزواج الكثيرة التي عُرضت عليها، ولاسيما الوزير ابن عبدوس، الذي اكتفت بصداقته والأنس بوجوده في مجلسها الأدبي .

1 - انظر ديوان ابن زيدون، ص 39

تجليات النرجسية في غزل ابن زيدون بولادة:

"عرف شاعرنا ولادة بعد أن بلغ أشده ،وتبوأ منصب الوزارة ونضجت مواهبه، فكان يغشى ندوتها مع من يغشاها من العظماء مُدِلا بمكانة أسرته ،ووفرة ثروته، وعلو منزلته، وذيوع شهرته في فنون الشعر والنثر والشؤون السياسية ، وكان ابن زيدون عزبا، فصادفت ولادة فيه فتى وسيم المحيا، حلو الحديث، قوي العارضة، رقيق الشعر، وصادف هو فيها أنوثة صارخة، وجمالا فتانا"[1]، وشهرة لامعة في المجتمع القرطبي، فانبعث فيهما ميل قوي هو نوع من الإعجاب الأدبي- إن صح التعبير – إذ تطلع إلى الظفر في ميدان الهيام،كما ظفر في ميدان الأدب والسياسة وقد شعر بإعجابها إذ قالت له في إحدى المرات[2]:

ترقبْ إذا جنَّ الظَّلام زيارتي فإني رأيتُ الليلَ أكتم للسرِ
وبي منك ما لو كان بالشمسِ لم تَلُحْ وبالبدر لم يطلع وبالليل لم يسرِ

دفعه هذا الكلام إلى **التيه بنفسه**، فهو المعشوق وولادة هي العاشقة المتيمة، ونراها تقول له شاكية فراقه، وقد غاب عنها بعض الوقت[3]:

ألا هل لنا من بعد هذا التفرقِ سبيلٌ؟فيشكو كلُّ صبٍّ بما لقي
وقد كنتُ أوقاتَ التزاورِ في الشتا أبيتُ على جمرٍ من الشوق مُحرقِ
فكيف؟ وقد أمسيتُ في حالِ قَطْعَةٍ لقد عجَّل المقدورُ ماكنتُ أتّقي
تمرُّ الليالي، لا أرى البينَ ينقضي ولا الصبرَ من رقِّ التشوقِ معتقي
سقى الله أرضا قد غدتْ لك منزلا بكلِّ سكوبٍ هاطلِ الودقِ مغدقِ

1 - ديوان ابن زيدون، ص 35
2 - نفح الطيب، ج5، ص337
3 - المصدر نفسه، ج،5ص 338

إن هذه المقطوعة غاية في الخضوع الأنثوي للرجل، ولكن ابن زيدون لم يتمكن من فهمها، واكتناه أسرارها، بل أحالته إلى الغرور والشعور بالتفوق على أبناء جنسه من العظماء الذين عشقوها، فقد اختارته دون غيره من الأمراء، فطار فرحاً باختيارها وعدّ نفسه مالكاً لزمام قلبها.

ونلمح من وراء الأبيات شعوراً خفياً لازم ولادة منذ بدء العلاقة بشاعرنا إذ أحست بأن القدر سيوقع بينهما الخصومة بل القطيعة، وهذا الشعور ليس وليد لحظة أحست بها ولادة، وإنما هو شعور متراكم منذ بداية علاقتهما، وكأنها أحست بغروره، وكان ما توقعته تماماً، إذ رد عليها ببيتين اثنين من الشعر يقول فيهما[1]:

لحا اللهُ يوماً لستُ فيه بملتقٍ ... محياكِ من أجلِ النوى والتفرقِ
وكيف يطيبُ العيشُ دونَ مسرّةٍ؟ ... وأيُّ سرورٍ للكئيبِ المؤرّقِ

فهذان البيتان من الغزل بولادة أقل حرارة وعاطفة من مقطوعتها الشعرية السالفة، ولم يكن الرد المقتضب على رسالتها الشعرية المشبوبة بالشوق والهيام ليرضي طموحها، ولاسيما أنها البادئة بالغزل، فقد كانت المحبوبة تنتظر من ابن زيدون حباً كبيراً يفوق حبها، ورداً عاطفياً يزلزل أركانها بعد ما كان بينهما من الجفاء .

وعلى الرغم من مكانة ولادة وشهرتها، بيد أن الشاعر لم يتردد في **إثارة حفيظتها** حين طلب من جاريتها "عتبة " أن تعيد لحناً كانت تغنيه، فشعرت ولادة بتماديه فقالت له [2]:

لو كنتَ تنصفُ في الهوى ما بيننا ... لم تهوَ جاريتي، ولم تتخير
وتركتَ غصنا مثمرا بجماله ... وجنحتَ للغصنِ الذي لم يثمر

1 - ديوان ابن زيدون، ص 74 1

2 - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق1، ج1 ،ص378

ولقـــد علمـــتَ بـــأنني بـــدرُ الـــسما لكن دُهيـــتُ لـــشقوتي بالمـــشتري

نلمح في هذه الأبيات شعور ولادة بالكبرياء، ولكن ابن زيدون لم يكتفِ بذلك بل أشعرها بالألم، فقطعت علاقتها به إلى غير عودة، فما كـــان مـــن ابـــن زيـــدون إلا الاعتذار إليها على ما بدر منه لكونه السبب في افتضاح أمرهما يقول[1]:

واللهِ ما ســـاءني أنـــي خفيـــتُ ضـــنىً بل ساء ني أنَّ سِرَّي بالضنى عَلَـــنُ
لو كان أمري- في كتمِ الهـــوى- بيـــدي ما كانَ يعلمُ- ما في قلبي- البـــدنُ

نستشف مما سبق أن حبه لإثبات تفوقه على أبناء جنسه من الكبراء الذين عشقوا ولادة كان أكبر من اهتمامه بأمر ولادة، والخوف على سمعتها وكرامتها .

وعندما وجد ولادة مصرة على القطيعة **نادى بعلاقتهما** قائلاً [2]:

يا من غدوتُ به فـــي النـــاس مـــشتهراً قلبي عليكَ يقاســـي الهـــمَّ والفِكَـــرَا
إنْ غبـــتَ لـــم ألـــقَ إنـــساناً يُؤَنِّـــسُنِي وإنْ حضرتَ فكلُّ الناسِ قد حضَرَا

وهنا ازداد شعور الإصرار على القطيعة عند ولادة حتى بدا الرجوع إلى ما كانا عليه ضرباً مستحيلاً حدوثه، وهذا الواقع الذي تلقى فيه ابن زيدون صدود ولادة جعله وراء ظهره، إذ راح يتخيل الحب، وهذا الحب ليس حباً حقيقياً، وإنما هو حب نرجسي – إن صح تسميته بذلك – فهو في هواه يتخذ من الحب موضوعاً يسجل فيه أشـــجانه وذكرياته، إنه لا يريد أن يشعر بمعاناة على الإطلاق، وبناء على ذلك فإنـــه يعتـــرف بموت هواه يقول [3]:

1 -ديوان ابن زيدون، ص181
2 - المصدر نفسه، ص172
3- المصدر نفسه، 189

عليكِ السلامُ !!سلامُ الوداعِ وداعِ هوى ماتَ قبلَ الأجلْ
وما باختيارٍ تَسليتُ عنكِ ولكنني مكرهٌ لا بطلْ

إن ابن زيدون يعدّ الهوى كائناً حياً سيموت إن عاجلاً أم آجلاً، ويأتي بمثلٍ غير منجسم مع حالة العشق التي يحاول تصويرها، وكأنه يصب قوالب لفظية جاهزة من دون أن يعاني من آلام الهوى وتباريحه .

وتبدأ رحلة ابن زيدون في **الانتقام** لذاته المجروحة، إذ يرى حبها فتنة محتومة عليه، ولا يكتفي بهذا، بل يتمنى لو دفعها القدر عن طريقه يقول[1]:

ما كان حبُّكَ إلا فتنةً قُدِرَتْ هل يستطيعُ الفتى أن يدفعَ القدرَا

فقد أصابته ولادة بجرح نرجسي، حاول تضميده عن طريق الثأر منها، فانطلق وراء خياله الثائر يقول[2]:

أما الضنى فجنتْهُ لحظةٌ عَنَنٌ كأنها والردى جَاءا على قدر
فهمتُ معنى الهوى من وَحْي طَرْفِكِ بي إنَّ الحوارَ لمفهومٌ من الحَوَرِ

إن البيت الثاني يفسر تفسيراً شاملاً الموقف النفسي الذي يعانيه ابن زيدون، إذ يرى نفسه في عيون ولادة فيفهم معنى الهوى من خلال ما توحيه عيناها حين تنظر إليه ،إنه يحب أن يُحَبَّ مريداً بذلك أن يراه الناس- وولادة أولهم - كما تراه أمه، فهو ينظر إلى نفسه بعيني أمه، وهو يفهم الهوى من عيون ولادة المولهة به، وذلك كله ضمن نسيج تخييلي صاغه ابن زيدون لتضميد جروح أناه المتعالية .

1 - ديوان ابن زيدون، ص 174

2 -المصدر نفسه، ص 251 - في الديوان (بي) بدلا من(لي)

وحاول ابن زيدون أن يثأر لذاته من خلال إبعاد أناه عن الإحباط، إذ لم يعد حب ولادة هو الذي يهمه، بل حبه لذاته التي يجب أن تكون بمعزل عن كل إحباط يمكن أن يصيبها، فيحاول أن يلقي **بمسؤولية هذا الفراق على الدهر** فهو المسؤول الأول عما أصابهما [1]:

ولا اختياراً تجنبناهُ عن كثب لكن عَدَتْنَا – على كره – عَوَادِيْنَا
فهل أرى الدهرَ يَقْضِيْنَا مُسَاعَفَةً فيهِ، وإن لم يكنْ غِبَّاً تَقَاضِيْنَا

فابن زيدون لا يريد أن يُشعر ذاته المجروحة بأن ولادة قد فارقته باختيارها، بل يعدُّ الدهر مسؤولاً عن معاندته وقهره ،إذ يخطف منه كل ما يتمناه . يقول في الحنين إلى محبوبته ووطنه وخلانه[2]:

هل تذكرون غريباً عَادَهُ شجنُ –من ذِكْرِكُمْ - وجفا أجفانَهُ الوسنُ؟
يا هلْ أجالسُ أقواما أحبُّهُمُ ؟ كنا وكانوا -على عهدٍ- فقد ظَعَنُوا
وأفردتَهُ الليالي من أحبتِهِ فباتَ يُنْشدها –ممَّا جنى الزمنُ –:
"بِمَ التعللُ؟ لا أهلٌ !ولا وطنٌ! ولا نديمٌ ! ولا كأسٌ ! ولا سكنُ ! "

وبمعونة الدهر تقع المسؤولية الثانية للفراق على كاهل العذال يقول [3]:

غِيْظَ العِدَا من تساقينا الهوى؛ فدَعَوْا بأنْ نغصَّ، فقال الدهرُ: آمينا

وهو لا يكتفي بهذا القدر، إذ إنه لا يكاد يعترف بتأثيرها القوي في ذاته حتى يلح عليه كبرياؤه، فيعقد توازناً بين إعجابه وإعجابها حتى يتساويا في الهوى يقول[1] :

1 -المصدر نفسه، ص 146،147
2 - المصدر نفسه ، ص 162، 163
3 - ديوان ابن زيدون، ص 142

أنّـــــــى أضـــــــيعُ عهـــــــدَكْ ؟	أم كيـــف أخلـــفُ وعـــدَكْ؟
قـــــــد رأتـــــــكِ الأمـــــــاني	رضــــاً، فلــــم تتعـــدَكْ
يـــا ليـــت مـــا لـــكِ عنـــدي !	-مـــن الهـــوى- لـــي عنـــدَكْ
فطـــــال ليلُـــــكِ بعـــــدي	كطـــــولِ ليلــــي بعـــــدَكْ
ســــــلِي حيـــــاتي أهبْهَـــــا،	فلــــستُ أملــــكُ ردَّكْ
الــــــدهرُ عبـــــدي، لمَّـــــا	أصـــبحتُ -فـــي الحـــب- عَبـــدَكْ

يبدأ مقطوعته باستفهام تعجبي، وكأنه قد اتهم بالغدر والخيانة، فيحاول إرضـاء ولادة بإنكار خيانته، وببقائه على العهد، وينتقل إلى تقريره بأن ولادة هي كـل مـا يريده، متمنياً أن تحبه كما يحبها، وفجأة ينتقل من التمني إلى التقرير حين يـصور أن حبها له يوازي حبه لها، وأن معاناتهما في الفراق واحدة، فبعد أن شعر بأن كبريـاءه قد منعه من التصريح بمعاناته وحده شارك ولادة مشاركة من نسج خياله ،ثـم تعـود لهجته إلى اللين حين يحاول استرضاءها عساها تحن إليه فتنتهي قطيعتهما، وهو حين يلين في استعطافه نرى أن نفسه تتأبى عليه وكيـف لا ؟!.. وقـد تعـودت التعـالي والغرور يقول [2]:

مـــا للمــــدامِ تــــديرُها عينـــاك	فيميلَ في سُكرِ الـصِّبَا عطفـاكِ؟
هـــلا مزجــتِ لعاشــقيك سُـــلافَهَا	ببَرُودِ ظَلْمِـكِ أو بعَـذبِ لَمَـاكِ
بل ما عليكِ -وقد محضتُ لـكِ الهـوى	في أنْ أفوزَ بحُظْـوَةِ المِـسْـوَاكِ
إنْ تــألفي سِـنَةَ النـؤومِ خَليَّـةً	فلطالمَـا نـافرتِ فِـيَّ كَـرَاكِ

1 - المصدر نفسه، ص 165

2 -المصدر نفسه، ص 343

نلاحظ في هذه الأبيات أن نظرة ابن زيدون إلى ولادة حسيّةٌ خالصةٌ، بعيدة عن شفافية الروح. كما أنه يعترف في البيت الثاني بأن لولادة عاشقين كثر، وهذا الاعتراف يبعد علاقته معها عن الحب تماماً، لاعترافه بأن الحب لم يتمكن منهما، فهو يصف الهوى وتباريحه من دون أن يعيشه، ويبدو استعطافه في أن يصل إلى حظوة المسواك عندها رغبة منه بالمتعة الحسية لا المعنوية، وفجأة- وكعادته- يشعر بأنين ذاته فيعود إلى كبريائه، ليرى أنها إذا كانت تنام اليوم، فإنها قد قضت أياماً وليالي طويلة وهي تغالب السهر فلا تصل إلى النوم أرقاً عليه واشتياقاً إليه.

إن ابن زيدون **يلقي اللوم والعتب** على ولادة، ويتخيل بأنها تعاني من حبه إرضاء لذاته التي تهرب من الإحباط . يقول لها انطلاقاً من ذاتيته [1]:

ضيّعتِ عهدَ محبةٍ كالوردِ سامَرَهُ الندى
أين ادعاؤكِ للوفاء ؟ وما عَدَا ممَّا بَدَا ؟

أراد أن يُشعر ذاته بالتفوق لدرجة يجعل معها ولادة هي الخاسرة والمضيعة لحبه بعد أن تساويا في الاهتمام .

كما أنه لا يتردد لحظة في **اتهامها بالغدر والكذب والخيانة**، مصرحاً لذاته المجروحة بأن حبها لم يتأصل في قلبه في محاولة منه لمواساتها وإشعارها بعدم الانكسار يقول[2]:

يا مستخفاً بعاشقيهِ ومُستَغشّاً لناصحيهِ
ومنْ أطاعَ الوشاةَ فينا حتى أطعنا السُلوَّ فيه
الحمدُ للهِ إذْ أراني تكذيبَ ماكنتَ تدَّعيهِ
من قبلِ أن يُهْزَمَ التسلِّي ويغلبَ الشوقُ ما يليهِ

1 - ديوان ابن زيدون، ص 189، 190
2 -المصدر نفسه، ص 190

نلاحظ أن ابن زيدون لا يتردد في أن يصور وجود عشاق آخرين لها، ونــراه يحاول إرضاء أناه بحمد الله تعالى على اكتشاف خداع ولادة وكذبها، مــصرحاً بــأن حبها لم يتأصل في قلبه، لأن الحب عنده مرادف للتملك، وحــين لــم يــتمكن مــن امتلاكها، أخذ **يصب عليها جام غضبه** يقول[1]:

وغــــــركَ مــــــن عهـــــدِ " ولادةٍ "	سرابٌ تــراءى وبــرقٌ وَمَــتضْ
تظـــنُ الوفـــاءَ بهـــــا؛ والظنـــو	نُ فيها تقولُ علــى مــنْ فَــرَضْ
"هـــي المـــاءُ يـــأبى علـــى قـــابضٍ	ويمنعُ زُبــد تَــهُ مــنْ مَخَــضْ "

اعترف أنَّ عهد ولادة سراب لا يكاد يتراءى حتى يغيب، وبرق لا يكاد يــومض حتى يختفي، ولعل السراب والبرق كلاهما لا يتركان أثراً بعد حــدوثهما، فالــسراب نقطة مضيئة لا تلبث أن تتلاشى في ظلام مطبق، والبرق لا يكاد يومض حتى يختفي من دون أثر، وهذا يدلُّ على مقدار يأسه من ولادة، واقتناعه بأن علاقتهمــا لاتعــدو الخيال الذي انطلق ابن زيدون خلفه، فهو لم يعانِ الحــب، بــل يعــاني آلام الــذات المجروحة، فيحاول إرضاءها بخلع صفات الكذب والخداع على مــسبب هــذه الآلام، ولكن الحقيقة الواحدة التي يدور حولها ابن زيدون هي عدم تمكنه من امتلاكها، فيراها كالماء الذي يستحيل إمساكه باليد ... ومن هنا ينبع ألمه وجرحه النرجسي، فيحــاول عقد توازن نرجسي في نفسه المأزومة بعد أن رفضته ولادة رفضاً قاطعاً. هذا كلــه جعله يشعر **بعدوانية شديدة واندفاعية هائجة** نحو مسبب هذا الجرح، بعد أن يئس من عودتها ورأى فيها ميلاً إلى غيره، فضرب حولها حصاراً مخيفاً إذ سل لــسانه مــن غمده، وأخذ ينذر من يقترب منها بهجاء مقذع، متناسياً صداقته معهم وكرامــة ولادة

1 - المصدر نفسه، ص 193

التي أهدرها، وأمعن في إيذائها أيما إمعان ... إذ راح **يقذع في هجائها** مصوراً إياها بصورة البغي المتهالكة على الرجال [1]:

أعـــدْ نظـــراً، فـــإن البغـــــيَ مما لـم يـزلْ يَـصـــْرَعْ
ولا تطــــعِ التــــي تغويــــكَ فهــيَ لغــيِّهمْ أطـــوعْ
ولاتـــكُ منـــكَ تلـــك الـــدارُ بالمـــرأى ولا المـــسمعْ
فـــإنَّ قُـــصارَكَ الدِّهْلِيْــــزُ حينَ سِواكَ فــي المَــضْجَـعْ

إنها أبيات لا يمكن لأي فتاة مهما كان مستواها الاجتماعي أن تتقبلها .. فكيف بولادة ؟! سليلة العظماء، وقبلة الأنظار أن تتقبل هذه الأبيات المهينة، ولعل أي محاولة منه لإرضائها بعد ذلك ستبوء بالإخفاق.

وهذا ما جرى فعلاً إذ نبذته ولادة إلى الأبد، فما كان من ابن زيدون إلا أن **تغزل بسواها** ظناً منه بأنها ستشعر بالغيرة التي أحست بها عندما تغزل بجاريتها يقول في معرض ذلك:[2]

قـد علقنـا سِـوَاكِ عِلْقَـاً نفيسـاً وصَـرَفْنَا إليـه عنـكِ النُّفُوسَـا
ولبِـسْنَا الجديـدَ مـن خِلَـعِ الحـبِّ ولم نـألُ أنْ خَلَعْنَـا اللَّبِيـسَا
لـيس منـك الهـوى، ولا أنـتِ منـه اهبطي مصرَ أنتِ من قوم موسـى

إن هذا الكلام يبدو غير موجه إلى ولادة بقدر ما هو مناجاة لذاته المنكسرة التي يحاول أن يضمد جراحها عن طريق **التشفي بولادة**، معرضاً بحبها الذي استبدله بحب امرأة أخرى لإرضاء غرور ذاته ،إذ إنه لم يتعلق بأخرى فحسب – بل إن هجران ولادة له لم يؤثر فيه على الإطلاق، فهو يخاطب واحداً ممن يترددون على ولادة [3]:

---

1 - ديوان ابن زيدون، ص 580
2 - المصدر نفسه، ص195
3 - المصدر نفسه ، ص 193،194

وأنـــذرْ خليلـــكَ مـــن مـــاهرٍ بطـبٍّ الجنـونِ إذا مـا عَـرَضْ
وأشْـــعِرْهُ أنـــي انتخبـــتُ البـــديلَ وأَعلمهُ أنـي اسـتجدتُ العِـوَضْ
فـــلا مـــشربِي - لقِـــلاهُ -أمَـــرَّ ولا مـضجعِي - لنـواهُ – أقـضّْ
وأنّ يـــدَ البـــينِ مـــشكورةٌ لعـارٍ أمـاطَ ووَصْـمٍ رَحَـضْ
وحـــسبي أنـــي أطبـــتُ الجَنـــى لإبّانِـــهِ، وأبحـــتُ الـــنَّفَضْ
ويهنيـــكَ أنـــكَ يـــا ســـيدي غـدوتَ مُقَـارِنَ ذاكَ الـرَّبَضْ

يخاطب في هذه الأبيات أحد عشاق ولادة –وعلى الأغلب الوزير ابن عبدوس – من دون أن يتحرج من قوله "أنذر خليلك" وكأنه لم يدخل في علاقة ودٍ معها، ويحاول أن يحتفظ لها بكرامتها وسمعتها لكنه يبوء بالإخفاق إذ يصغي لصوت ذاته المجروحة، ويستجيب لأناه عندما خاطب خصمه ابن عبدوس وقال له: "أشعره" فهو يريد أن يشعر ولادة **بلامبالاته،** وأن قلبه شغل بحب جديد إرضاء لأناه، ولا يكتفي الشاعر باتخاذ البديل، بل يمعن في نرجسيته فيشكر يد الفراق التي أبعدته عن ولادة بعدما نال منها الجنى المعلَّل، وترك منها ما لا يريد. وهذا الشعور ملآن بالغرور، يحاول ابن زيدون من خلاله تغطية انكساره النفسي الحاد أمام منافسه ابن عبدوس بغض النظر عن كرامة ولادة، والألم النفسي الذي ألحقه بها الشاعر. إن أناه بارزة في أبيات هذه القصيدة كلّها، فقد طغت على كل شيء حولها على نحوٍ تام. ولا نستغرب بعد هذا أن ينظر إلى ولادة نظرته إلى عدو مريب، كيف لا وقد أصابت ولادة ذاته -التي أولع بها -بجرح مؤلم حين انصرفت إلى من هو دونه في الجمال والمكانة والإبداع، ولهذا فإنه لا يتحرج من **هجائها بأقذع** الكلمات يقول [1]:

أظنينـــةً دعـــوى البـــراءة ِ شـــأنُهَا أنـتِ العـدوُّ فَلِـمْ دُعيـتِ حبيبـا
ما بـالُ خـــدّكِ لا يـزالُ مـضرجاً بـدمٍ، ولحظُـكِ لايـزالُ مُريبـا؟

1 - ديوان ابن زيدون، ص 325

إنها عدوة الذات النرجسية التي تنزف ألما ،وابن زيدون لا يكتفي برؤيتها عدوة له، بل يرى نظراتها مريبة ،والريبة تعني أنه يتهمها ويشك بها، ولعل تهمتها الوحيدة جرحها لأناه أمام أعدائه. واستخدامه للفعل (لا يزال) دليل على شعور لازمه منذ بدء علاقتهما ،إذ العشاق من حول ولادة كثر، وهو يريد التفوق عليهم ،والفوز بقلب ولادة ،ولذا عاش حالة شك وخوف لازماه في أثناء علاقتهما، والعلاقة التي تبنى بين العاشقين على حب الذات لا على حب الآخر، والتفاني من أجله، لابدَّ أن يكون مصيرها الإخفاق.

وقد شعر ابن زيدون بتجنيه على ولادة ومغالاته في الإساءة إليها، والقسوة في معاملتها، فضلاً عن عوامل أخرى منها افتقاده مركزه السياسي، وفراره من السجن شهوراً ..كل هذا دفعه إلى اللين في بعض الأحيان على الرغم من صيحة أناه المتعجرفة، فأخذ يراوح بين اللين والقسوة. يقول مخاطباً ولادة [1]:

قد نالني منكَ ما حسبي به، وكفى! يامن تناهيتُ في إلطافهِ فجفا
علَّلتني بالمُنى، حتى إذا علقتْ بالنفس لم أُعطَ من أسبابِها طرفا
غيِّرتَ عن خُلُقٍ قد لانَ لي زمناً لينَ النسيم، فلما لذَّ لي عصَفا
لايَحبطنْ عملٌ أرضاكَ صالِحُهُ!! ففي سبيلكَ أنفقتُ الهوى سَرَفا

ليس هناك عاشق حقيقي يسأم من معاناته تباريح الهوى ،كما فعل ابن زيدون في تصوير سأمه من ولادة ،بعد أن شعر بضغوط لا تتوافق مع أناه المتعالية ،فقرر إنهاء معاناته بعد أن ألقى اللوم على ولادة التي زرعت له الأماني وعللته بالحب، وحين تعلق بها انصرفت إلى غيره، غير مبالية بمشاعره .وفي البيت الأخير لا يرى الشاعر

1 - المصدر نفسه، ص 183

ضيراً في استخدام الفعل "أنفقت " في البوح عن معاناته آلام الحب، وكأن الهوى شيء مادي لا روحاني .

ولعل ابن زيدون أبعد ما يكون عن الروحانية فأغلب غزله حسيٌّ مادي، ينظر إلى المرأة نظرة حسية مادية . من ذلك قوله[1]:

زارني بعد هجعةٍ، والثريا ... راحةٌ تقْدِرُ الظلامَ بشبرِ
والدجى من نجومِه في عقودٍ ... يتلألأن من سِمَاكٍ ونَسْرِ
تحسبُ الأفقَ بينها لازورداً ... نثرتْ فوقه دنانيرُ تِبرِ
فرشفتُ الرُّضابَ أعذبَ رشفٍ ... وهَصرتُ القضيبَ ألطفَ هصرِ
يا لها ليلةً !!تجلّى دجاها ... - من سنا وجنتيه -عن ضوء فجرِ
قصَّرَ الوصلُ عمرَها، وبودي ... أنْ يطولَ القصير ُمنها بعمري

يبدأ ابن زيدون بكلمة" زارني " فالطرف الآخر هو الذي يزوره، وهذا شيء لم تعتده العرب؛ فالطبيعي أن يكون الرجل صاحب المبادرة دائماً، ومن طبيعة المرأة الحياء والتمنع فكيف تسمح ولادة لكبريائها أن يخونها فتكون المبادرة منها .. لعل تفسير هذا يعود إلى الطبيعة النفسية التي طبعت ابن زيدون **بحب ذاته إلى درجة الهيام**، فتخيل هذا إرضاء كلّه لهذه الأنا المتعالية، إذ نرى في أبياته اختفاء الطرف الآخر تماماً، والاكتفاء بالحديث عن نفسه فهو الفاعل دائما يقول: "رشفت – هصرت – بودي. .." كما ترفرف حول أبياته **روح التملك** الذي طغى عليه. .. وكأنه اتخذ من ذاته موضوعاً لحبه، فالذات عنده هي المبتدى والنهاية، وقد طغت على كل شيء حوله حتى إنها قررت أمور الحب بعيداً تماماً عن الطرف الآخر. يقول على سبيل المثال لا الحصر[2]:

1 ديوان ابن زيدون، ص231

2 - المصدر نفسه، ص 125

عدتُ إلـــى الوصـــلِ -كمـــا أشـــتهي- فـــالهجرُ بـــاكٍ، والرضـــا باســـمُ
سِـــــرِّي وجَهـــــري أننـــــي تـــــائمُ قـــامَ بـــك العـــذرُ، فـــلا لائـــمُ
لا يـــــنمِ الواشـــــي الـــــذي غرنـــــي ها أنا- في ظـــلِ الرضـــا- نـــائمُ

إنها نظرة حسية نرجسية، تسيطر عليها روح التفوق والتعالي، فهو يعـود إلـى الوصال متى شاء من دون رأي أو موقف من الطرف الآخر .
حتى إن اللقاء يبدو حسياً بعيداً عن الروحانية يقول في ذلك[1]:
ولطالمـــــا أبـــــديتِ إذ حَيِيتَنِـــــا كفَّاً -هي الكفُّ الخضيبُ -خَـضِيبَا

إن نظرته حسية تماماً، فهو منذ بداية اللقاء وقيام التحية ينظر إلى ذلـك اللقـاء نظرة مادية على النقيض من نظرة العباس بن الأحنف إلى محبوبته عند لقائها [2]:
غضـــضتُ طَرْفِـــي دونهـــا إذ بـــدتْ والعينُ لا تقـــوى علـــى الـــشمسِ

فالمفارقة بين النظرتين بينة: الأول ينظر إلى محبوبته نظرة مادية، والثاني ينظـر إليها نظرة روحانية، والمقارنة بين الاثنين مقارنة بين الروح والجسد؛ فـابن زيـدون يندفع بفطرته الطفولية إلى الاستمتاع وراء أهوائه الشخصية، وأنّات ذاته المجروحـة التي تريد أن تثأر لنفسها حتى لو اقتضى الأمر تـصرفاً ينـافي أخـلاق العاشـقين، فالشاعر لا يتردد أن يصف ولادة بطعام أكله، وترك نفايات منه للآخرين .. يقول في ذلك[3]:

1 -ديوان ابن زيدون، ص 324
2 - ديوان العباس، ص 183
3 - ديوان ابن زيدون، ص 196

أكـــــرمْ بـــــولادةٍ ذخـــــراً لمـــــدَّخرٍ　　لو فَرَّقَــتْ بــين بَيْطَــارٍ وعَطــارِ
قالوا: أبــو عــامرٍ أضــحى يُلِــمُّ بهــا　　قلتُ: الفراشةُ قد تدنتو مــن النَّــارِ
عيَّرتُمُونَـــا بـــأنْ قـــد صـــارَ يخْلُفُنَـــا　　فيمنْ نُحبُّ، وما في ذاكَ منْ عــارِ
أكـــلٌ شـــهيٌّ أصـــبنا مـــن أطايبِـــــهِ　　بعضاً، وبعضاً صفحنا عنه للفــارِ

فقد وصلت إليه أخبار ولادة في مصادقتها للوزير ابن عبدوس الملقــب بالفــار، فقال هذه القصيدة في هجاء ولادة إرضاء لذاته المجروحة، وطغــت علــى الأبيــات اللامبالاة المتعمدة والتشفي القاسي، فقد أخذت نفسه من ولادة ما تشتهي، ومن ثمّ تأبت عن الباقي إلى هذا الصديق الجديد لها، ضمن إطار من التجريح الذي لا معنى يفــسره سوى تهدئة نفسه المضطربة والمنكسرة أمام الخصوم .

وفي الأبيات التي يحاول أن يتلطف الشاعر في وصف ولادة نرى النزعة الحسية ما تزال تلازمه، فهو لا يجد في ولادة خيراً ما لم تعطه ما يريد منها يقول [1]:

يـــا أليـــــنَ النـــاسِ أعطافـــاً، وأفتـــنهمْ　　لحظاً، وأعطـــرَ أنفاســـاً وأردانـــا
حَـــسُنْتَ خَلْقاً،فأحْـــسِنْ لا تَـــسُؤْ خُلُقـــا،　　ماخيرُ ذي الحسنِ إن لم يُولِ إحسانا

فالنزعة الحسية واضحة تماماً في شعره، إذ الوصال لديه رديف الهوى، يقول في معرض مَنٍّ عليها [2]:

أأســـلبُ مـــن وصـــالكِ مـــا كُـــسيتُ ؟　　وأعزلُ -عن رضاكِ- وقد وَلِيــتُ
وكيـــف؟ وفـــي ســـبيل هـــواك طوعـــاً　　لقيتُ مـــن المكـــارهِ مـــا لقيـــتُ!

1 - المصدر نفسه، ص 179
2 - ديوان ابن زيدون، ص 178

إنه يسأل السؤال الذي طالما استنكرته الذات المتألمة، إذ رأى نفسه مقهوراً من قبل ولادة بعد أن لانت له زمناً، كان وصالها كساء له، فهو لم ينل وصالها فحسب بل جعله كساء له، وهذا شيء لا نستغربه نظراً إلى ما تتمتع به ولادة من مكانة رفيعة في مجتمعها، فقد كانت قطيعتها للشاعر ضربة قاصمة لذاته ولاسيما حين عدّ اهتمام ولادة به، ولاية له عليها، فهو يستفهم مستنكراً ما حصل بشدة، ولا يتردد في تذكيرها بمتاعبه التي لقيها في سبيل هذا الهوى، ليقتل أي إحساس نبيل قد تشعر به ولادة نحوه.

وهكذا عاش ابن زيدون حياة غير مستقرة، إذ كانت أناه تُسيّره باستمرار ولذلك لم يتمكن من الفوز بأي مجال من مجالات حياته ؛ ففي علاقته مع ولادة كاد أن يولد حب كبير بينهما لولا أنانية الشاعر التي فرضت نفسها، وتعاليها على من حولها، فغدت هذه الذات موضوعاً للحب يبدأ منها لتنتهي عندها. والحب الحقيقي هو إسقاط للأنا العليا على المحبوب ...ولكن في حالة شاعرنا هذه الأنا هي بين الأنا الأعلى والهو، ومن هنا اختل مفهوم الحب لديه، فسقط ضحية أناه بعد أن أسقطها على ولادة التي صعُب عليها – وهي ابنة عز وجاه – هذا الأمر فقاطعته إلى الأبد، وهذا الواقع المتأزم لا يخضع لشروط أناه، ولا يناسب نرجسية الشاعر، فانطلق نحو تصور علاقة حب خيالية، بطلها ابن زيدون نفسه، يصول ويجول في أمور الحب، يأمر وينهى إرضاء لذاته ونزوات أناه في آنٍ معاً.

السمات الفنية لغزله:

إن السمة الجوهرية التي يتسم بها غزل ابن زيدون هو **الإحساس الحاد بأناه** التي يخشى عليها من الإحباط أيّما خشية! فهو يبدأ بنفسه لينتهي عندها ضمن نسيج خيالي صاغته أناه المتأزمة، فحاول ابن زيدون عقد توازن نفسيٍّ بين ماضٍ جميل لعلاقة حب متخيلة، وحاضر منكسر لعلاقة لم تصل إلى مرحلة الحب الحقيقي على

الإطلاق. وحين يتمثل دور الحب نراه يستخدم الكلمات التي تدل على **عدم تمكن الهوى منه**. يقول على سبيل المثال[1]:

أصونكِ من لحظاتِ الظنونِ وأُعليكِ عن خطراتِ الفِكَرْ
وأحذرُ من لحظاتِ الرقيبِ وقدْ يستدامُ الهوى بالحذرْ

فقد ارتفع المستوى العاطفي في البيت الأول إلى درجة عالية من الروحانية والشفافية، ثم ما لبثت أن انخفضت في البيت الثاني، إذ جعل الشاعر الحذر من الرقباء شرطاً لاستمرار الهوى، وهو لا يكتفي بذلك بل يستخدم "قد " التي تفيد الشك، والفعل "يستدام " عوضاً عن "يدوم" معطياً للفعل دفعة من عنده، وكأنه بحاجة إلى ضغط كبير على النفس لكي يتم الهوى برأيه، وهذا كلّه بعيد تماماً عن الانسيابية في مواقف الهوى والهيام .

إنه يعيش في حالة من الشك، وكأنه يصور شيئاً غير واضح في ذهنه، وهذا فعلاً ما وقع فيه ابن زيدون إذ يقول بأسلوب الشرط [2]:

ولو أنني أقسمت: أنك قاتلي وأني مقتول، لما قيل: حانثُ

فقد استخدم "لو" التي هي حرف شرط في المستقبل بيد أنها لا تجزم، وهكذا كانت علاقة ابن زيدون بولادة تماماً **بعيدة عن الجزم والتقرير** .

عاش ابن زيدون **ثنائية الحب المتخيل والواقع المعيش** من أجل عقد توازن نفسيٍّ لذاته المنكسرة، إذ نرى في معظم أبياته ثنائية الراحة والعذاب، القرب والنأي، اللقاء والجفاء، الحزن والفرح، إنها الثنائية التي أنشأتها طبيعة نفسه المتعالية يقول[3]:

1 - المصدر نفسه ص168
2 -ديوان ابن زيدون، ص 184
3 - المصدر نفسه، ص 149

متـــــى أبثـــــكَ مـــــا بـــــي ؟ يـــــا راحتـــــي وعـــــذابي
متـــــى ينـــــوبُ لـــــساني - في شـــرحه – عـــن كتـــابي ؟

إنها ثنائية الماضي والحاضر بل ثنائية الواقع واللاواقع؛ فالواقع ألـــم وعـــذاب، واللاواقع راحة وانسجام، وابن زيدون عقد توازناً بينهما مستخدماً الأدوات الفنية كلّـــه التي تساعده على عقد هذا التوازن، فقد استخدم أسلوب الجمع ليبيّن أن رغبتهـــا بـــه تضاهي رغبته بها، محاولة منه لإراحة أناه، وإبعادها عن الإحباط، يقول على ســـبيل المثال[1]:

كتـــــابي -عـــــن ودادكِ -لا يـــــزولُ، وعهدي- مثل عهـــدكِ- لا يحـــولُ

ونلاحظ أن **معظم غزله عبارة عن مقطوعات** يصوغها في تصوير حالات نفسية متباينة يعانيها فينفعل معها انفعالاً آنياً، وكأنه لا يريد الاسترسال في وصـــفها. وقـــد ارتأيت أن أختار إحدى أشهر قصائده الغزلية وأطولها، لأحاول من خلالها أن أتبـــيَّن أهم السمات الفنية التي عكستها طبيعته النفسية، موضحة معالم النرجسية فيها، ولاسيما أن هذه القصيدة لها وقع خاص في حياة ابن زيدون، فلدى صياغتها كان الشاعر يعاني من قضايا كثيرة، منها دخوله السجن، وفقدانه منصبه السياسي، وابتعاده عن قرطبة – مدينته المفضلة – وقد صاغ هذا كله في قصيدة استعطاف سمّاها" آمال وآلام "[2] عبّـــر فيها عن نفسه المتأزمة التي أصابها الإحباط والانكسار، وعلى الرغم مـــن كـــل مـــا أصابه من الأزمات إلا أنا الشاعر كانت ترفض الاعتـــراف بالهزيمـــة والانكـــسار،

1 - المصدر نفسه ، ص 151

2 - ديوان ابن زيدون، ص141

وتحاول التجلد أمام المحن، والتعايش مع آلام نفسه المبثوثة في تضاعيف القصيدة، ففي بداية قصيدته يذكر لنا حالة الفراق التي يعيشها فيقول[1]:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... ونابَ عن طيبِ لقيانا تَجَافِينا
ألا – وقد حانَ صبحُ البينِ – صَبّحَنَا ... حَيْنٌ، فقام بنا للحَيْن دَاعينا
منْ مبلغُ الملبِسِيْنَا بانتزاحِهِمُ ... حزناً مع الدهرِ لا يَبْلَى ويُبْلِينا
أنَّ الزمانَ الذي ما زال يُضْحِكُنَا ... أُنساً بقربِهِمُ قد عادَ يُبْكِيْنَا

فقد استعمل في البيت الأول الطباق مرتين، مستخدماً ثنائية اللقاء والجفاء، ونلاحظ بأنه قال " أضحى التنائي " من دون" نا" الفاعلين، وكأن هذا التنائي ليس من صنع أيديهما وإنما هو قدر محتوم، وإذا كان في الجفاء لقاء غير طيب، فإن في التنائي بعداً وفراقاً.

وفي البيت الثاني نلاحظ الصنعة الفنية التي لا تتناسب وآلام الفراق التي يجسدها في قوله "حان صبح البين" وكأن للفراق موعداً قد حان أوانه، كذلك استخدامه المعاني المتكررة في قوله " صبحنا حين – فقام بنا للحين" . وفي البيت الثالث نرى أن الصنعة الفنية قد غلبت الشفافية والروحانية، إذ جعل للحزن لباساً يلبسه الشاعر فلا يبلى، بيد أنه يبليه، وهذا كله كلام بعيد عن الإحساس العاطفي الشفاف، مما يدلُّ على أن الحب شيء لم يتمكن من قلبه. ويعود الشاعر في البيت الرابع إلى الطباق مستخدما ثنائية التوازن التي اعتمدها اعتماداً شبه كليٍّ.

كما تظهر في هذا البيت الحالة النفسية التي يعاني منها ابن زيدون حين فارق ولادة، وعلى الرغم من أن الفراق قد تمّ إلا أن الشاعر يحاول أن ينأى بنفسه عن الإحباط فيقع في التناقض حين قال: " قد عاد يبكينا" بدلاً من " كان يبكينا" ففعل العود يشير إلى أن بكاء الفراق قد تكرر غير مرة، وهذا التكرار هو من نسج خيال ابن

1 - المصدر نفسه، ص141

زيدون، فقد كان فراق ولادة صارماً لا رجعة فيه على الإطلاق . ثـم يبـدأ الـشاعر بتصوير أسباب هذا الفراق بما يلائم نفسيته المتعالية، من دون أن يعترف بأن أنانيته، وحبه للشهرة والتفوق هما وراء غضب ولادة، وإصرارها على الفراق، ولذلك يلقـي اللوم على عاتق الدهر والعذال قائلاً[1]:

غِيْظَ العدَا من تَسَاقِيْنَا الهَـوَى؛ فـدَعَوْا "بأنْ نَغَـصَّ، فقـالَ الـدهرُ:آمينـا
فانْحـلَّ مـا كـانَ معقـوداً بأنفِنَـا وانبتَّ ما كـان موصـولاً بأيـدينا
وقـد نكـونُ، ومـا يُخـشى تفرقُنَـا فاليومَ نحنُ، ومـا يُرجـى تَلاقِيْنَـا

أول ما نستشفه من وراء هذه الأبيات استخدامه لضمير الجمع في أفعال يقوم بها هو، ولكنه يُشرك ولادة معه كيلا يفرد أناه في معاناة آلام الهوى ،إذ يقول "تـساقينا، نغصّ، بأنفسنا، بأيدينا، تفرقنا، نكون، نحن، تلاقينا " كما أن استخدامه المبني للمجهول في خشية الفراق ورجاء اللقاء، وكأنه لا يريد الاعتراف بالواقع الأليم لـذلك يخـشى الفراق ويرجو اللقاء، ولكن الشاعر على الرغم من محاولته الابتعاد عن كل مـا هـو محبط لنفسيته إلا أن الحقيقة تخرج من فِيه عن غير وعيٍ منه حين يقرر في النـصف الثاني من البيت السابع استحالة اللقاء " فاليوم نحن وما يرجـى تلاقينـا" وهـذا هـو الاعتراف الأول منه في هذه القصيدة بأن العودة واللقاء أصبحا شيئين مستحيلين .

ويبدأ بتصوير آلام الفراق قائلا[2]:

بِنْـتُمْ وبِنَّـا فمـا ابتلَـتْ جوانحُنَـا شوقاً إلـيكمْ، ولا جفـتْ مآقينـا
نكـادُ - حـين تُنـاجيكُمْ ضـمائرُنَا - يقضي علينا الأسَى، لـولا تأسـينا
حالَـتْ لفقـدكُمُ أيامُنَـا، فغـدتْ سُوداً، وكانتْ بِكُمْ بيـضاً ليالينـا

---

1 - المصدر نفسه، ص 142

2 - ديوان ابن زيدون، ص 142،143

فقد كان اعترافه السابق - بأن اللقاء غدا مستحيلاً – طعنة لأناه، وكان لابدَّ من إعادة التوازن لذاته، ومداواة جراحه فلم يجد بداً من مشاركة ولادة في نية الفراق إذ قال: "بنتم وبنا"

وفراق الشاعر، هو صرخة ذاته المنكسرة التي يحاول ابن زيدون مراضاتها بعد أن تأبت أن تكون هي المفارقة فحسب، وكعادته في هذه القصيدة يستخدم الطباق لتصوير حالته النفسية محاولاً عقد توازن مع ذاته، ومن ثمّ ينتقل إلى تصوير حالته عندما تمّ الفراق قائلاً[1]:

نكادُ- حينَ تناجيكم ضمائرُنا - يقضي علينا الأسى، لولا تأسينا

إن المناجاة حديث النفس والروح، ولكن ابن زيدون يناجي ولادة بضمير، وكأنه يشعر بالذنب تجاهها فلطالما عانت من تجريحه لها، وقسوته عليها، وعلى الرغم من هذا الإحساس بالذنب فإن ذات الشاعر تتدخل دائماً لمنع أي إحباط يمكن أن يصيبها فيقول " نكاد " وكأنه لا يجزم حتى في المناجاة، ونراه حين يفيض شعوره بالألم والأسى يصور لنا سواد الأيام ولكنه سرعان ما يتوازن مع ذاته، فيسترجع ذكريات خيالية لأيام بيض قضاها الشاعر مع محبوبته في رياض الطبيعة . ويبدأ خياله بتصوير ماض جميل لا يعكر صفوه أي شيء، إرضاء لغرور ذاته التي رفضت الواقع المؤلم، فانساق وراء أحلامه اللازوردية ليبعدها عن الانكسار، وهنا يعود إليه إحساسه بالحسية والفوقية، ونزعته المتعالية على المحبوب، وسيطرة حب التملك عليه، متناسياً كونه في حالة استعطاف، وإن كان يُشعرنا في أبياته بأن استعطافه يقوم على حياء، يقول ابن زيدون[2]:

إذ جانبُ العيشِ طَلْقٌ من تأَلُّفِنَا ومَرْبَعُ اللَّهْوِ صافٍ من تصافينا

1 - المصدر نفسه، 143

2 - ديوان ابن زيدون، 143

وإذ هَـصَرْنَا فنـونَ الوصـلِ دانيـةً قِطَافُها، فَجَنَيْنَـا منـهُ مـا شِـينا
لِيُـسْقَ عهـدُكُمُ عهـدُ الـسرورِ فمـا كنـتمْ لأرواحِنَـا إلا رَيَاحِيْنَـا

إن تكرار "إذ " مرتين هي محاولة منه للفت الانتباه إلى أفعال ذاته التي يقوم بهـا الشاعر في عالم الخيال، ويشرك فيها ولادة، وهنا تكمن حقيقة الموقف النفسي الـذي يعانيه الشاعر؛ إذ في الخيال ما يريح الذات المتعالية، وفي الواقع مـا يؤلمهـا، ففـي البيت الثاني عشر تبرز "أنا" الشاعر الفاعلة دائماً لاختفاء الطرف الآخر تماماً، وهـذا ليس دليل سلبية الطرف الآخر، وإنما دليل على عدم وجوده على الإطـلاق . وهكـذا يسرح الشاعر وراء رغبات ذاته الجامحة، مطلقاً العنان لخياله في تصور علاقة حـب وهمية تتفوق فيها أناه على ما سواها .

ويشبه الشاعر ولادة بفاكهة اجتنى منها ما يشاء ويرغب، وهذه الفاكهة لم تصعب عليه أن يقطفها لكونها دانية له ،إذ لا يسهل قطافها فحسب بل يتفنن في قطافها . فقـد حاول الشاعر اختلاق أحداث من نسج خياله، ليعيد التوازن إلى ذاته المكلومـة التـي أرهقها الإحباط، وأذلها الانكسار. ثم ينتقل بعد ذلك إلى تصوير حالته بعد فراق ولادة وتولي هذه الأيام السعيدة قائلاً[1]:

لا تحـسبُوا نـأيَكُمْ عنـا يُغَيِّرُنَـا إن طَالَمـا غَيَّـرَ النـأيُ المُحِبِّيَنَـا
واللهِ مـا طلبـتْ أهواؤُنَـا بـدلاً منكُمْ، ولا انصرفَتْ عـنكُمْ أمانينـا
يا ساريَ البرقِ غادِ القصرَ واسـقِ بـه من كان صِرْفَ الهوى والودِ يَسْقِيْنَا
واسْـأَلْ هنالِـكَ:هـل عَنَّـى تَـذَكُّرُنَا إلفـاً، تـذكُّرُهُ أمـسى يعنِّينـا
و يـا نـسيم الـصَّبَا بلـغْ تَحيتَنَـا مـن لو على البعد حَيَّى كانَ يُحْيِينا

1 - المصدر نفسه، ص 143،144

يحاول في هذه الأبيات أن يخبر ولادة بوفائه وبقائه على العهد، مقسماً على ذلك، ولعل هذا القسم ليس الدليل على حب روحاني تمكن منه، وإنما نراه يصرح بأن أهواء نفسه هي التي تريد ولادة. وهكذا يتحقق لنا أن ابن زيدون كان يمشي وراء أهواء ذاته ورغباتها، في حين أن ولادة لا تتعدى أن تكون أمنية من أمانيه، ولعل هذا الاعتراف بكونها أمنية قد جرح ذاته، فأخذ يعود إلى الماضي المتخيل، ليصور ولادة وهي منصرفة إليه تسقيه كؤوس الود والهوى[1]:

يا ساريَ البرقِ غادِ القصرَ واسقِ بهِ من كان صِرْفَ الهوى والودِّ يَسْقِيْنَا

عانى ابن زيدون من هجر ولادة له وانصرافها عنه إلى ابن عبدوس معاناة قاسية، مما جعله يستفهم عن معاناتها من فراق الشاعر، فهو في شك حاول تجاوزه ليصل إلى اليقين حين بعث بتحيته إلى ولادة مع ثقته برده على تحيته على الرغم من فراقهما.

وتبدأ رحلة الاستعطاف التي يسوقها ابن زيدون في مدح ولادة بأسلوب يميل إلى الصنعة الفنية أكثر من ميله إلى الانفعالية الروحانية والإحساس الحقيقي بالحب يقول[2]:

ربيبُ مُلْكٍ كأنَّ اللهَ أنشأهُ مِسْكَاً، وقَدَّرَ إنشاءَ الوَرَى طِيْنَا
كأنما أُثْبِتَتْ في صَحْنِ وَجْنَتِهِ زُهْرُ الكواكِبِ تَعويذاً وتزيينا

نلاحظ وجود مبالغة شديدة يغلب عليها الطابع الحسي، في محاولة منه لإرضاء غرورها ... ولكنه لا يلبث أن يتحول إلى ذاته حين يبدأ بتصويرها قبل الفراق حين

1 - المصدر نفسه، 144

2 - ديوان ابن زيدون ،ص 144،145

كانت ولادة ربيبة الملك أمامه، يتمتع برؤياها، ويتملى من محاسنها، ويتنعم بلينها وغضارتها يقول [1]:

يارَوضةً طالما أجنتْ لواحظَنَا ورداً جَلَاهُ الصِّبَا غَضّاً ونسْرِينا
ويا حياةً تَمَلَّيْنَا بِزَهْرَتِها مُنىً ضروباً ولذاتٍ أفانينا
ويا نعيماً خَطَرْنَا من غضارَتِه في وشْيِ نُعْمَى سَحَبْنَا ذيلَهُ حينا
لسنا نُسَمّيكِ إجلالاً وتكرِمَةً وقدرُكِ المعتلى عن ذاكِ يُغْنِيْنَا

فقد استخدم أسلوب النداء الذي يعني استدعاء المنادى ليقبل عليك، ولكنه هنا يخرج عن معناه الحقيقي إلى التفاخر بأيام مضت، تمتع الشاعر فيها بربيبة الملك والجاه، ولعل أكثر ما آلم ولادة من ابن زيدون هو إشهاره لعلاقتهما على سبيل التفاخر والإشهار، ولذلك أطلق ابن زيدون هذا البيت [2]:

لسنا نُسَمّيكِ إجلالا وتكرمة وقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا

بعد أبياته السابقة تجنباً منه لغضب ولادة ونقمتها عليه مرة أخرى، ولكنه لا يلبث حين يذكر قَدْرَ ولادة العالي أن يُرضي غرور نفسه بعودته إلى الماضي إذ يقول[3]:

كأننا لم نَبِتْ والوصلُ ثالثُنَا والسعدُ قد غضَّ من أجفانِ واشينا
سِرّانِ في خاطِرِ الظلماء يكتُمُنَا حتى يكادَ لسانُ الصبحِ يُفْشِيْنَا

هو لم يقل "لم نبت معاً" بل قال: "لم نبت والوصل ثالثنا" وهذا دليلُ بروز (أناه) وانفصاله عن محبوبته ، فالوصال هو المبتغى الذي يسعى ابن زيدون خلفه، فاللقاء

1 - المصدر نفسه، ص 141،148
2 - المصدر نفسه، ص145
3 - المصدر نفسه، ص146

وحده لا يكفيه، لأنه يميل إلى الحسية في علاقته بولادة، وحين يطلب منها بصيغة الأمر أن تحفظ العهد فإنه لا يتورع عن قوله "ما دمنا" وكأنه في شك من بقائه على عهدها، وهذا يدلُّ على تزعزع ثقتها بحبه إياها، يقول[1]:

دُومي على العهدِ – ما دُمْنَا – محافظةً فالحرُّ من دانَ إنصافاً،كما دِينا

وتبدو نزعته النرجسية واضحة للعيان في قوله [2]:

ولو صَبَا نحْوَنَا من عُلْوِ مَطْلَعِهِ بدرُ الدجى لم يكنْ حاشاكِ يُصْبِيْنَا

إنه يضع نفسه دائماً في موضع المعشوق، في محاولة منه لإرضاء غروره النرجسي مصوراً لولادة أنه على الرغم من الإغراءات الكثيرة التي يتعرض لها غير أنه يفضلها على الجميع، هذا كله ضمن نسيج تخييلي، إذ لا يلبث أن يعود إلى الواقع حين يعترف مرة ثانية باستحالة اللقاء يقول [3]:

أولِي وفاءً - وإن لم تبذلي صلةً - فالطيفُ يقنعُنَا، والذكرُ يكفينا
عليكِ منَّا سلامُ اللهِ ما بقيتْ صبابةٌ بكِ نُخفيها فتُخفينا

فقد تحقق من استحالة اللقاء، فحاول أن يرضى بالطيف والذكرى العابرة.و في البيت الأخير تتبيّن لنا الحالة الحقيقية التي تفسر تقلبات شاعرنا الهوائية وانفعالاته النفسية التي تحاول إبعاد أناه عن الإحباط، فتكون تحيته إلى ولادة مرتبطة بما في القلب من شوق يحاول إخفاءه، وإذا تساءلنا عن سبب الإخفاء- على الرغم من تصريحاته المتكررة لولادة- لوجدنا بأن ذات الشاعر تأبى أن تُظهر حبه مرفوضاً من

1 - ديوان ابن زيدون ،ص 147
2 - المصدر نفسه، ص147
3 - المصدر نفسه، ص148

قبل الطرف الآخر، فتحاول إخفاء الحب عن الناس، لإبعاد تلك الذات عن الانكسار والانهيار الروحي .

نتائج البحث:

كانت الأنا تُسيِّر ابن زيدون على صعيدي السياسة والحب، فقد نظر إلى نفسه بعيني أمه ظناً منه أن أفراد مجتمعه ومن ضمنهم ولادة سينزلون عند رغباته كما كانت تفعل أمه. ومثل هذه النظرة المتعالية كفيلة بأن تجعله يخفق في تحقيق طموحاته.

إن مفهوم الحب عند الشاعر بدأ من نفسه وانتهى عندها، وبدلاً من أن يخضع أناه لمحبوبته، حاول أن يخضع محبوبته لأناه، فاختل مفهوم الحب لديه، وكان صريع أناه حين أحب ذاته أكثر من حب ولادة، فقد أحب أن يشتهر من خلالها، ويقال عنه: إنه حبيب الأميرة الأموية ولادة بنت المستكفي، كما كان مغروراً بجماله وفتونه، نرجسياً في نظرته لنفسه، وكان مبتلى بمثل الغيرة التي لدى صاحبته[1]، وقد ظن بغروره هذا أنه يستطيع أن يستحوذ على قلب ولادة . لكن ولادة -في الوقت نفسه- شعرت بتفوقها على من حولها، وقوى هذا الشعور تهافتُ المعجبين على مجلسها الأدبي، والتودد إليها، والتنافس فيما بينهم للفوز بقلبها . ورأت في ابن زيدون – أحد معجبيها – صورة المثال للرجل الأندلسي، يشبهها في كثير من الصفات والميزات، فانجذبت إليه، ليزداد تألقها ألقاً بصحبة شخصية مرموقة في الأندلس، كانت تود أن تكون مطلوبة لا طالبة، تريد أن يحبها الشاعر، وأن يقال عنها إن ابن زيدون المعروف بجماله وشاعريته أسير ولادة في الهوى .

إن كلاً من العاشقين أحب الآخر، ليس من أجل حب الآخر لشخصه، وإنما من أجل عشق الذات، فكل منهما أراد أن يحقق رغباته من خلال الآخر؛ ابن زيدون أراد الحصول على امرأة نموذجية تحقق رغباته كلّها، ويزداد معها رفعة وتفوقاً على

1- للتفصيل في غيرة ولادة انظر: في الأدب الأندلسي، جودت الركابي، ص171.

أقرانه، وولادة أرادت الحصول على زوج مثالي، تحسدها صـــويحباتها عليـــه، زوج تحقق من خلاله ما افتقدته في شخص والدها، فأخفق الاثنان في الحب، فلم يستطع ابن زيدون الاحتفاظ بقلبها لشعوره بالغرور، ولأن حبه لذاته كان أكبر من حبه لها، ولـــم تكن ولادة لتتساهل مع هذا الصلف والغرور، فحبها لنفسها أقوى من حبها له؛ فالذات هي المعشوقة، وهي الغاية، أمَّا حب الآخر فكان وسيلة لتحقيق تلك الغاية، وليس هذا من العشق في شيء، فالعشق كما عرفه ابن حزم: «محبة العشق التي لا علة لهـــا إلا اتصال النفوس المعشوقة، وكل أنواع المحبة تتغير بتغير أسبابها، إلا محبـــة العـــشق، فهي التي لا علة لها...»[1].

إن شخصية العاشقين متشابهتان، متساويتان في الخـــصال والرغبـــات، ويمكـــن للشبيه أن ينجذب إلى شبيهه ولكنه لا يتماهى معه .

ومن خلال ما سبق نرى أن استمرار الحب بينهما محال، ومن الطبيعي أن تكبح عوادي الحياة هذا الحب وتبيده بعد ما سعى الوشاة إلى وأده، فانفـــصلا إلـــى غيـــر رجعة، وانتهت قصتهما بمأساة الفراق.

أخفق ابن زيدون في تحقيق طموحاته السياسية والعاطفية ؛ فلا هو اســـتطاع أن يحتفظ بمنصبه الوزاري عند أبي الحزم بن جهور، ولا هو استطاع أن يفـــوز بقلـــب ولادة، ويحافظ على حبها، وإخفاقه - على صعدي السياسة والحب- فجـــر قريحتـــه الشعرية بعدما ذاق مرارة الألم والانكسار أمام الخصوم والأعداء، وكـــأن المـــرء لا يبدع في فنه إلا إذا تألم.

فمأساته في هجر ولادة له، وانصرافها عنه إلى من هو أدنى منه منزلة وجاهـــا شحذ ملكته الشعرية، وأشعل جذوة الصبابة في نفسه، فقال في بعد ولادة عنه ما قـــال من روائع القصيد، وأنشأ فيها ما أنشأ من شعر بديع ،لم تتفتق عنه قريحته أيام قربـــه منها، وشعره فيها بعد الفراق كان سبباً رئيساً في" شهرة ولادة وامتيازها من غيرهـــا

1- رسائل ابن حزم طوق الحمامة، ابن حزم الأندلسي، ص95-96 .

من نساء الأندلس، واستئثارها من دونهن بمزيد من الاهتمام من مؤرخي الأدب وناقديه وأصحاب الرواية والأخبار"[1].

كما أن غزله بولادة في طور الفراق أكثر عذوبة وإبداعاً منه في طور اللقاء لأنه وليد آلام الذات، وجروح الأنا، وأنين الكرامة التي رفضت الرضوخ لعبث المحبوبة ودلالها.

فقد " كان شعر الحب عند ابن زيدون من أهم أغراضه الشعرية إذ كان بارعاً في هذا المجال، لم يجاره فيه أحد من أدباء الأندلس، لا ممن سبقه ولا ممن لحقه ...وكانت ولادة بنت المستكفي قطب الرحى فيه "[2]، ولم يكن غزله بها عذرياً روحانياً، ولا هو إباحيٌّ فاضح، وإنما هو غزل بامرأة أحبها، وفضّلها على نساء الأندلس إلا أن حبه لذاته، واعتزازه بكبريائه كانا أكبر من حبه لها .

1- الأدب الأندلسي، مصطفى الشكعة ،ص 212

2 - في الشعر العربي الأندلسي والمغربي، د. علي دياب، ص 131 .

المصادر والمراجع

1-ابن الأحنف، العباس، الديوان، دار صادر بيروت، 1965 م .
2-ابن بسام، أبي الحسن علي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيـــرة–، مطبعـــة لجنـــة التأليف والترجمة بالقاهرة 1939-1942 .
3- ابن حزم الأندلسي: رسائل ابن حزم الأندلسي ــ تح . إحـــسان عبـــاس، جـــــ1 المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1 – 1980.
4- ابن زيدون ،الديوان، تح علي عبد العظيم ،مكتبة مصر بالفجالة 1957 .
5- بوفلاقة، سعد، النرجسية في شعر نزار قباني، ط1، 1994م .
6- دياب، علي، في الشعر الأندلسي والمغربي، منشورات جامعة دمشق، 1995.
7- الركابي، جودت، في الأدب الأندلسي، دار المعارف، مصر، 1980 .
8- الشكعة، مصطفى، الأدب الأندلسي، دار العلم للملايين، 2000 .
9- عبد النور، جبور، المعجم الأدبي، ط2، دار العلم للملايين بيروت، 1984.
10- فرويد، الذات والغرائز، تر . محمد عثمان نجاتي، د.ت .
11- وليم .ك.متجر منروليف، أضواء الطب النفسي على الشخصية والسلوك، تـــر. محمد أحمد غالي، مكتبة القاهرة، د.ت .
12- الضبي – أحمد بن يحيى – بغية الملتمس – مطبعة روخس بمدريد 1884 .
13 - المقري، أحمد بن محمد، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تح. إحـــسان عباس، ج 5، دار صادر، ط 1، بيروت .

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2010/6/9.